الدرس الواحد و الأربعون

تفسير سورة الإنسان: [١٠ : ٢١]

{ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) }

قوله: {إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا} مرة أخرى يعيدون ذكر اليوم الآخر، فاليوم الآخر ماثلٌ في قلوبهم ونصب أعينهم وهذا هو الذي ضبط مسارهم، كيف يكون اليوم نفسه عبوسًا؟ المراد بآثاره على وجوه أهله، ويكون أيضا قمطريرًا، أي شديدًا. فقيل في معنى عبوس: أنه يظهر العبوس والكلح على وجه الكافر، حتى ووصف بعضهم ذلك: حتى ينعقد ما بين عينيه فيسيل منه مثل القطران!، وقال ابن عباس رضي الله عنه: عبوس أي: ضيق، وقمطرير طويل. حتى قال ابن

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

كثير رحمه الله: **وعبارة ابن عباس: أوضحها وأجلاها وأعلاها وأحلاها وأولاها**، ولا ريب أن الوجوه مرآة القلوب ولهذا تظهر التعابير من فرح أو حزن أو غبطة أو اكتئاب على الوجوه، تأمل قول الله عز وجل {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ* ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ *وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ *تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ} [عبس:٣٨-٤١] فالوجه هو المرآة التي تظهر عليها الانفعالات، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم تُرى الانفعالات في وجهه، تقول عائشة رضي الله عنها ،عن النبي صلى الله عليه وسلم: (دَخَلَ عَلَيَّ مَسْرُورًا، تَبْرُقُ أَسَارِيرُ وَجْهِهِ)[١]، وفي حديث آخر: (رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَهَلَّلُ، كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ)[٢]، بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم يظهر عليه أثر السرور، وأيضًا تعرف الكراهة في وجهه إذا كره شيئًا.

قال الله تعالى: {فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ}، ذاك اليوم الذي أقضّ مضاجعهم وحملهم على ترك الشهوات ولزوم الطاعات لمّا خافوه في الدنيا أمنهم الله إياه في الآخرة، فإن الله تعالى لا يجمع على عبد مخافتين، ولا يجمع عليه أمنين، فمن خافه في الدنيا أمّنه في الآخرة، ومن أمنه في الدنيا أخافه في الآخرة.

قوله: {وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} (وَلَقَّاهُمْ) بمعنى أعطاهم، (نَضرة)، تكون النضرة في الوجوه، وصف ما سبق بأنه عبوس قمطرير تظهر آثاره على الوجوه، كان حال

(١) أخرجه البخاري رقم(٣٥٥٥)، ومسلم رقم (١٤٥٩).

(٢) أخرجه مسلم رقم (١٠١٧).

هؤلاء النّضرة في الوجوه، وهي البهاء والجمال والسُّفرة، (وَسُرُورًا) السرور يكون في القلوب. فالنضرة في الوجوه والسرور في القلوب، {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} الجزاء من جنس العمل، لأن الله تعالى حَكَم عدل مقسِط سبحانه وبحمده، لا يضيع أجر المحسنين.

فالباء في قوله {بِمَا صَبَرُوا} أي: بسبب صبرهم، فصبرهم ذاك كان سببًا للنعيم {جَنَّةً وَحَرِيرًا}، فأما الجنة فهي دار النعيم التي أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين، (أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)[3]، (فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَنَهَرٌ مُطَّرِدٌ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ)[4].

قوله: {وَحَرِيرًا}، هو اللباس الرائق الرقيق الناعم الفاخر، وكأنّ الله سبحانه وتعالى لما ذكر النعيم الباطني من السرور ذكر النعيم الخارجي، فقال: {جَنَّةً وَحَرِيرًا} فالجنة هي ما تشاهده العين، والحرير هو ما يكسو البدن.

والصبر له منزلة عظيمة، فالدين كله صبر.

---

(٣) أخرجه البخاري رقم (٣٢٤٤)، ومسلم رقم (٢٨٢٤)، متفق عليه.

(٤)أخرجه ابن ماجه رقم (٤٣٣٢)، وابن حبان رقم (٢٦٢٠)، والطبراني في "الكبير" (١/ ٢١-٢٢)، وقال الألباني في " السلسلة الضعيفة والموضوعة" (٧ / ٣٧٠) ضعيف.

وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله وصبر عن معصية الله وصبر على أقدار الله المؤلمة، فمنزلة الصبر من الدين كمنزلة الرأس من الجسد قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [السجدة:٢٤] فالصبر على طاعة الله بأن يحمل الإنسان نفسه على فعل الأوامر بل وفعل المستحبات، والصبر عن معصية الله هو أن يحجز الإنسان نفسه عن ارتكاب المحرمات بل والمكروهات.

والصبر على أقدار الله المؤلمة بأن يحبس الإنسان نفسه عن الجزع، ولسانه على التشكي والسخط، وجوارحه عن ضرب الخدود وشق الجيوب وما أشبه ذلك من فعل الجاهلية، ويرضى بما قسم الله، {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن: ١١]، قال علقمة: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ(٥).

قوله: {مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ} لا تجد وصفًا كوصف القرآن، ولا أرق، ولا أنعم، كما تجد في هذه السورة، شيء لا تحيط به العبارات، ينقلك إلى أجواء سامية رفيفة راقية، حسًا ومعنى. والاتكاء: إما أن يكون بمعنى الاضطجاع أو بمعنى الارتفاق، الاضطجاع بأن يمد جسمه على الأرض، أو الارتفاق بأن يتكئ بمرفقه

(٥) تفسير الطبري: (٢٤/ ٤٢١).

والأرائك: هي السرر التي تحت الحجال، يعني لها مظلة. وهو مشهد يشفّ عن نعيم ورقة وبهجةٍ يسرح الخيال في تصورها.

{مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا}، لا يرون فيها شمسًا تحرقهم بحرارتها، ولا بردًا يقتلهم بصقيعه، بل هو جو معتدل وإضاءة رائقة خلقها الله، فلا يلزم أن يكون النور بسبب الشمس أو القمر، بل يخلق الله في الجنة نورًا، ويجعل فيها جوًا معتدلًا غير متقلب.

قوله: {وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا}، دانية يعني قريبة، ظلال أشجارها، فهي تكتنفهم وتحيط بهم.

قوله: {وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلا} قطوفها: أي ما يقطفون من ثمارها، وذُللت أي هُيئت وقُرّبت، فإذا أحب أحدهم أن يقطف من ثمار الجنة تدلّى له الغصن ولم يحتج إلى القيام لتناوله، وإذا قام قام معه، فهم محاطون بالرفاهية والرقة والنعيم.

قوله: {وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ}: والفضة من أرق المعادن، فأواني الجنة، أو بعض أوانيها من الفضة، لرقتها ونعومتها، وكما أسلفنا ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء، لكنها تشترك معها في أصل معناها، فمن معاني الفضة أنها تمتاز بالرقة والصفاء.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

قوله: {وَأَكْوَابٍ} الأكواب هي ما لا عرى له ولا خراطيم من الآنية، لأن الذي له عروة وخرطوم هي الأباريق

قوله: {كَانَتْ قَوَارِيرَا} يعني كهيئة القوارير لكنّها قوارير من فضة، وهذا شيء عجيب لأن القوارير تكون من الزجاج، فكيف سُبِكت الفضة وصارت في صفائها كصفاء الزجاج، هذا من عجائب الجنة، فقوارير الثانية بدل من قوارير الأولى {قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا} يعني قدّرها خالقها أو من أمر الله تعالى بصنعها، تقديرا بحيث تكون على قدر حاجة الشارب؛ لأن الإناء إذا كان كبيرًا ومملوءًا لم يلتذ به شاربه، وإذا كان صغيرًا لم يفِ بحاجته، فيأتي على مقدار.

{وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلا} والكأس في لغة العرب يراد به كأس الخمر، وهذه المرة مِزاجه الزنجبيل، والزنجبيل فيه رائحة زكية، محببة لكنه زنجبيل الجنة، ليس كزنجبيل الدنيا فيه لذعة وحرارة، لكن فيه مما تميل إليه النفوس بمعنىً من المعاني.

قوله: {عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا} أي: في الجنة عين مشهورة تسمى سلسبيلًا، وذلك لسلاستها وطيب مائها وبرده وحلاوته.

قوله: {وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ} وهم الغلمان الذين خلقهم الله عز وجل في الجنة، لخدمة أهل الجنة، {إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا} يا له من وصف

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

عجيب! يعني لكثرتهم وبهائهم ونَضرتهم، كأنما مو لؤلؤُ منثور، وصف مدهش مبهر لا تستطيع العبارات أن تنقله.

وهم مخلّدون يعني لا يموتون، وقيل مخلّدون: مخرّصون كما قال بعض المفسرين،: يعني في أذانهم أقراط، كما يجعل للصبيان فيما مضى أقراط في أذانهم.

قوله: {وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا} يعني مهما قلبت طرفك والتفتّ، في هذه الأجواء العظيمة، الرفيفة الرقيقة الناعمة، تجد نعيمًا وملكًا كبيرًا، ملكهم الله إياه، حتى إن أقل أهل الجنة نعيمًا من يسير في مُلكه ألفي عام ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه، فما بالك بالمقربين؟.

قوله: {عالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا} {عالِيَهُمْ} يعني يعلوهم ويكسوهم، {ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ}، فالسندس: هو ما رق من الحرير، والإستبرق ما غلظ وسمك منه، ولون الخضرة ينمّ عن الفخامة والنعومة في آن واحد.

قوله: {وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ} الأساور حلق من ذهب أو فضة تكون في اليدين {وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا}، نسب السقيا إلى الله، فما أعظم الساقي وما أكرمه! {شَرَابًا طَهُورًا} ليس فيه شيء من القذى.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

قوله: {إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا} يمتنّ الله تعالى عليهم بذلك، وله المنّ والفضل سبحانه فإنما دخلوا الجنة برحمته، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " لاَ، وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ)[6].

فجعلَ الله ذلك برحمته، لكن جعل أعمالهم سببًا لدخول الجنة، { فالله سبحانه وتعالى شكور يثيب الطائع مع أنه المتفضل عليه بالهدى.

---

(٦) أخرجه البخاري رقم (٥٦٧٣)، ومسلم رقم (٢٨١٦).